(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(١٠)

السعيُ واستشعار معانيه

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن عبادات الحجِّ العظيمة السعيُ بين الصفا والمروة، فقد أمر اللهُ به في كتابه بقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾[1].

وجاء الأمر به في سُنّة نبيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله وفعله، قَالَت عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: **(ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بِهِمَا -أي بين الصفا والمروة- فَلَيسَ لأَحَدٍ أَنْ يَدع الطَّوَافَ بِهِمَا)**[2].

وعند مسلم قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: **(طاف رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وطاف المسلمون، فكانت سُنَّةً)**[3].

---

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

(٢) أَخرَجَاهُ في الصَّحِيحَينِ.

(٣) رواه مسلم.

ومرادها بالطواف هو السعي كما ذكر أهل العلم؛ لأنَّ الطواف بالكعبة ركن متفقٌ عليه، ويُؤيده الحديث الذي يليه، والمقصود بقولها: (فكانت سُنَّةً) أي: سُنّةٌ واجبة.

وعن حبيبةَ بنتِ أبي تِجْراةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (**رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ وَرَاءَهُمْ، وَهُوَ يَسْعَى حَتَّى أَرَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: "اسعَوا، فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ"**)[1].

والسعيُ عبادة تظهر فيها العبودية الحقَّة للعبد المؤمن، والاستجابة الكاملة لربه، ومن فضائله ما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**... وأمَّا طوافُكَ بالصَّفا والمروةِ؛ كعِتْقِ سبعينَ رقبةً**" -أي: في الفضل والأجر-[2].

فانظر لهذا الفضل الكبير الذي جعله الله لمن سعى، واستحضره، واحتسبه عند الله، وأحمده عليه.

---

(١) رواه أحمد وابن خزيمة، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن خزيمة.

(٢) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

وأصلُ مشروعيَّةِ السَّعْيِ هو سعيُ هاجرَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ عندما تركَها إبراهيمُ مع ابنِهما إسماعيلَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بمكَّة، ونَفِدَ ما معها من طعامٍ وشرابٍ، وبدأت تشعُرُ هي وابنُها بالعطشِ؛ فسَعَتْ بين الصَّفا والمروةِ سَبْعَ مرَّاتٍ طلبًا للماءِ؛ يقول ابنُ عباس: (وجعلَتْ أمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ وتَشْرَبُ من ذلك الماءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاءِ عَطِشَت وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى أو قال: يتلبَّطُ، فانطلقت كراهيةَ أن تنظُرَ إليه، فوجَدَت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَتِ الواديَ تنظُرُ: هل ترى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا، فهَبَطَت مِنَ الصَّفا حتى إذا بلغَتِ الواديَ، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعت سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ، حتى إذا جاوزت الواديَ، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، ونظَرَت هل ترى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا، ففعلت ذلك سبْعَ مرَّاتٍ، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فذلك سَعْيُ النَّاسِ بينهما"[1].

ففي هذا المكان قامت تسعى وتطلب ضارعة إلى الله تعالى أن يهديها إلى ماء تروي به ظمأها وظمأ ابنها، فانفجرت الأرض

(١) رواه البخاري.

عن بئر زمزم، قال ابنُ كثير في تفسيره: (فَلَمْ تَزَلْ تَرَدَّدُ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمُشَرَّفَةِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مُتَذَلِّلَةً خَائِفَةً وَجِلَةً مُضْطَرَّةً فَقِيرَةً إِلَى اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، حَتَّى كَشَفَ اللهُ كُرْبَتَهَا، وَآنَسَ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَنْبَعَ لَهَا زَمْزَمَ التي مَاؤُهَا طَعَامُ طَعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ).

وها هو ماء زمزم الذي أطعمه الله الملايين من الناس؛ حيث يستقي منه حُجّاج بيت الله الحرام من آلاف السنين إلى يومنا هذا.

والسعي بين الصفا والمروة ليس مجرّد مشي بين جبلين، وذهاب ومجيء من دون حكمة وغاية، بل هو اتِّباع لسُنن المرسلين، ومنسك من مناسك الحجّ والعمرة، به يتمّ الحجّ والعمرة، ومعه يتحقّق الاستسلام لله والاستجابة لأمره.

وفيه استشعارُ العبد بأنّ حاجته إلى خالقه ورازقه كحاجة تلك المرأة في ذلك الوقت، وتوجّهه لربه كتوجّهها له في كشف كُرَبه، ويتذكّر به الساعي أنّ من يطيع الله فإنّه لا يضيّعه، ولا يخيّب سعيه، كما لم يضيّع سعي هذه المرأة الصالحة وابنها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن ينقذه من شدائد العوز والاحتياج، وأن يرحمه برحمته الواسعة كما رحم هاجر وابنها بماء زمزم.

وفيه يستحضر العبد فقره إلى ربه، وحاجته لمولاه في كلِّ شؤونه، قال ابنُ كثير في تفسيره: (فَالسَّاعِي بَيْنَهُمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فَقْرَهُ وَذُلَّهُ وَحَاجَتَهُ إِلى اللهِ فِي هِدَايَةِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِ حَالِهِ وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْ يَلْتَجِئَ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيُزِيحَ مَا هُوَ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ إِلى مَمَاتِهِ، وَأَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ حَالِهِ الذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، إِلى حَالِ الْكَمَالِ والغُفران وَالسَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا فَعَلَ بِهَاجَرَ عَلَيْهَاالسَّلَامُ)[1].

وهذه معانٍ جليلة ينبغي أن يستحضرها الساعي بين الصفا والمروة، فإظهار الفقر لله من أنفع الأمور للعبد، فيسعى وهو مضطر لرحمة الله وهدايته، وحاجته لصلاح قلبه، وغفران ذنوبه، وتكميل حاله، فمن فعل ذلك تجده خاشعًا، حاضر القلب في سعيه، يُؤديه وقد اجتمع عليه قلبُه، وأخلص لله في الدعاء، وأظهر الفاقة لمولاه، فقل بربك كيف سيخرج الساعي من سعيه وهو مستحضر هذه المعاني أثناء سعيه؟!

(١) [تفسير ابن كثير، سورة الحج]

واستحضر بالمقابل حال من غفل عنها، ويسعى وكأنّه يمشي بلا غاية من هذا السعي؛ لتُوقن بأهمية حضور القلب في هذه المناسك، وأثره على الحاجِّ والمعتمر.

وكلما كان قلب الساعي حاضرًا فيه، فإنه يؤدِّيه على أكمل وجه، ويجد اللذة لهذه العبادة، ويخرج منها بقلب الخاشع الذليل لربه، ويقوى هذا مع لزوم الذكر في السعي، وشغل النفس به، وترك الانشغال بالخلق، وكذلك طول الدعاء وكثرته وتنوّعه، وإظهار الفاقة للربِّ الكريم، وكم سمعنا عن أناسٍ صالحين يقف أحدهم وقوفًا طويلًا على الصفا والمروة، داعيًا مناجيًا ربه، لعلمهم أنّ هذه المواطن من مواطن إجابة الدعاء، وأنّها عبادات لها أثرها في قلب العبد الناسك.

وممّا ينبغي للساعي أن يستشعره عند سعيه أنّه ممتثل لأمر الله الذي أمره بذلك، فمن استشعر ذلك وجد حلاوة العبادة، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوله: "فلما دنا من الصفا" يعني قرب منه، قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1] "أبدأ بما بدأ**

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

الله به" وفائدة هذه القراءة إشعار نفسه بأنّه إنّما اتجه إلى السعي امتثالاً لما أرشد الله إليه في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ وليعلم الناس أنهم إنما يسعون بين الصفا والمروة من أجل أنهما من شعائر الله، وليعلم الناس أيضًا أنه ينبغي للإنسان إذا فعل عبادة أن يشعر نفسه أنه يفعلها طاعة لله عَزَّوَجَلَّ كما لو توضأ الإنسان، فينبغي أن يستشعر عند وضوئه أن يتوضأ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ (١) ويشعر أيضا أنه يتوضأ كأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامه يتبعه في وضوئه، وهكذا جميع العبادات فإذا استشعر الإنسان عند فعل العبادة أنه يفعلها امتثالاً لأمر الله فإنه يجد لها لذةً وأثرًا طيبًا)(٢).

أمَّا صفة السعي الثابتة، فإنّه يبتدئ بالصفا و[يُشْرَعُ له إذا دنا مِنَ الصَّفا أن يقرأَ قَوْلَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(٣). ويقول: (أبدأُ بما بدأَ الله به)، ويقتصِرُ في قوله هذا على الصَّفا في المرَّةِ الأولى فقط، ويرتقي على الصَّفا حتى يرى الكعبةَ

(١) [سورة المائدة: آية ٦]

(٢) شرح حديث جابر في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ص ٣٥.

(٣) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

ويستقبلها، ويُكَبِّر ثلاثًا: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، ويقول: لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلْك ولـه الحَمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحـده، أنجَزَ وَعْـدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهَـزَمَ الأحـزابَ وَحْدَه. ثم يدعو بما تيسَّـرَ، رافعًا يديـه، ويُكَرِّر ذلك (ثلاثَ مـرَّاتٍ)، ويقول ويفعل على المَـروةِ كما قال وفَعَلَ على الصَّفا، في الأشـواطِ السبعة، ما عدا قراءةَ الآيةِ، وقولَه: (أبدأُ بما بدأَ اللهُ به) ويُكْثِرُ مِنَ الدُّعاءِ والذِّكْرِ في سَـعْيِه، ومن ذلك: ربِّ اغفِرْ وارحَمْ؛ إنَّك أنت الأعزُّ الأكرمُ)[1].

قال الألباني: (وإن دعا في السَّعي بقولِه: ربِّ اغفِرْ وارحَمْ؛ إنَّك أنـت الأعزُّ الأكرمُ، فلا بأس؛ لثبوته عن جمعٍ مِنَ السـلف، وذكر منهم ابن مسعود وابن عمر والمسيب بن رافع الكاهلي وعروة بن الزبير)[2].

والمشـي في السعي أفضل، فعَنِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "إنَّ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثُـرَ عليه النَّـاسُ يقولون: هـذا محمَّدٌ،

(١) [الموسوعة الفقهية، موقع الدرر السنية]

(٢) [مناسك الحج والعُمْرة: ٢٧].

هـذا محمَّدٌ. حتى خـرج العواتِقُ مِـنَ البيوت، وكان رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُضْـرَبُ النَّاسُ بيـن يَدَيْه، فلمَّا كَثُـرَ عليه رَكِبَ، والمشيُ والسَّعيُ أفضَلُ"[1].

ويسـتحب لمن أراد إكمال السـعي على أكمل وجه أن يكون سـعيه عقب الطواف بأن يواليه دون تأخّر، وأن يسعى على طهارة من الحدث الأكبر والأصغر، وأن يرقى على الصفا وعلى المروة -ولو قليلاً-، وأن يكون منشـغلًا بالذكـر والدعاء وتلاوة القرآن طَوَال سعيه.

وفقك الله، وجعلك من المقبولين.

❋❋❋

(١) رواه مسلم.